

سوسيولوجيا المجال
دراسة في مدينة كربلاء القديمة
(علم الاجتماع، المجال الحضري، مدينة كربلاء)

د. شاكر سعيد ياسين
قسم الانثربولوجيا – كلية الاداب / الجامعة المستنصرية
بغداد

shalbidany@yahoo.com

المخلص

يطرح البحث دراسة ميدانية لمدينة كربلاء القديمة من خلال الاستبيان على عدد من الافراد لاكتشاف واقع المدينة في النواحي الاجتماعية والخدمية . تتكون المدينة من ثلاث مجالات هي الديني والتجاري والسكني تتفاعل سوية لتمنح المكان سمة تتماثل مع مدن المراقد المعروفة . كما درست التغيرات الديموغرافية التي رافقت تاريخ المدينة منذ نشوئها وخصوصا في الفترات الاخيرة حيث اصبح الزخم السكاني هائلا ويتطلب معالجات تخطيطية للمستقبل. فضلا عن الطراز التقليدي الذي طبع المدينة قديما ، فان الابنية الحديثة والمحلات السكنية المتأثرة بالعمارة الغربية اخذت حيزها في اضعاء التنوع على المكان دون ان يقلل من شان الروحية والقدسية التي تتمتع بها كرمز يربط الانسان بمكانه منذ القدم.

Summary

Coming search field study of the ancient city of Karbala through the questionnaire on a number of individuals to discover the reality of the city in the social and service aspects. The city consists of three areas namely: religious, commercial and residential, interact together to give the place a similar feature with known shrines cities. Also examined demographic changes that accompanied the city's history since its emergence, especially in recent times, where he became a huge population momentum and requires planning for the future processors. as well as the traditional style that has characterized the city , the modern buildings and neighborhoods affected western architecture took their space in diversity of place without underestimate the spiritual and sacred which enjoyed it as a symbol linking the man whith his space since ancient times.

المقدمة

لا توجد مدينة في العراق تستقطب المشاعر الدينية بحماسة مثل كربلاء ، والنصوص الدينية قد حثت على زيارتها على مدار اليوم والاسبوع والسنة كما ينقل رواة الشيعة . فهي مدينة لاتنام من كثرة زوار المرقدين العريقين للحسين والعباس .

التاريخ هو الذي يبعث الروح والحركة التي تنشط مع اقدام الزائرين ور واحهم ، فهو المكان الذي شهد مصارع اهل البيت . وقد ولدت كثرة الزائرين زخما بشريا شديدا وتنافسوا على الخدمات خصوصا في الزيارات الكبرى . فضلا عن ان الشكل العمراني للمدينة القديمة اخذ بالتغير نتيجة لزحف النشاط التجاري على السكني وتراجع الاخير عن وظيفته الى الاسثمار في الفنادق والمخازن وانشطة تجارية اخرى . ومع بقاء قسم آخر يؤدي وظيفته السكنية فان اضمحلال وربما انعدام الخدمات في المحلات السكنية يطرح تساؤلا حول امكانية اعادة الحياة اليها في الوقت الذي تطرح فيه قضية الحفاظ على الهيكل التراثي الذي ميّز المدينة منذ نشوئها .

في نشوء المدينة وتطورها نلاحظ منحيين : الانفعال والتفاعل . فمرحلة النشوء جاءت على اثر **انفعال** المجتمع مع العامل الديني بناء على جاذبية الضريحين وقداستهما المستوحاة من النصوص والاحاديث . ثم مرحلة التوسع التي جاءت باثر **تفاعل** العامل السياسي مع الديني . نشأت كربلاء بفعل الحدث التأسيسي وهو مقتل الامام الحسين سنة ٦١ هـ واستحوذت بعد هذه الواقعة على اهتمام الزوار الى مرحلة تكشف عن اقامة دائمة هي التي ستمنح كربلاء طابعها المدني على اثر جذب المنطقة للعامل الاقتصادي (السوق). فتجتمع في هذا المكان توليفة تجمع بين : الدين – السكن – السوق وتتفاعل في دينامية متواصلة. لكن العنصر المهيمن هو الديني الذي يشكل هبة عالمية وشموخ أبدي يفرز على الدوام هوية المدينة وطابعها التراجيدي . لكن مرحلة التوسع والتطوير خضعت الى مد وجزر من قبل السلطات الحاكمة . فبينما نجد سلطة تعبت بالمدينة الى درجة هدم الضريح المقدس (المتوكل ، صدام حسين) والجماعات الدينية والقبلية الغازية ، الا ان حكاما آخرين عملوا على توسيع وتطوير المدينة اما لغاية سياسية – دينية كما فعل البويهيين والصفويين او لغاية سياسية محضة تهدف الى توطيد السلطة كما فعل العثمانيين .

ويسهم العامل الاجتماعي بنصيبه في تشكيل النسيج الحضري . فعشيرة السلاميين سكنت كربلاء قبل اربعة قرون واخذت جانبا لها يدعى اليوم بباب السلامة نسبة اليها . ونشأت بقية الاطراف/المحلات السكنية تباعا بعد محلة السلامة وهي باب الطاق وباب الخان وباب النجف وباب بغداد وباب طويريج، وانتهاءا بمنطقتي العباسية الغربية والشرقية التي شيدت بعد ازالة السور المحيط بالمدينة القديمة . وهذا يعني بقاء رواسب المد الصحراوي الذي يغطي منطقة

الفرات الاوسط لبناء نموذج اجتماعي يجمع بين الحضرية والقيم البدوية التي يمكن ان نجد احد تطبيقاتها في النزعة المناطقية كالادعاء او الانتساب للطرف خصوصا اثناء موسم الطقوس العاشورائية.

في هذا البحث تدرس كربلاء القديمة باهمية من خلال سوسيولوجيا المجال¹ لاضفاء صورة من الواقع المعاش في اعمال التخطيط الحضري .وينازعنا الامل في تقديم ذلك الواقع على حقيقته بالاستعانة بما توفر لدينا من احصاءات تثري عملية التحليل .

منهج البحث

اعتمدت الدراسة الحقلية للمدينة والمعايشة التي استمرت بسقف زمني من ٢٣ - ١ - ٢٠١٢ ولغاية ٢٥ - ٢ - ٢٠١٢ . كما واستعان الباحث بعدد من الاحصاءات المتوفرة في الدوائر الحكومية رغم الصعوبات التي رافقت ذلك . وفي مشاهداته للمدينة استعان الباحث ببعض المخبرين للاستفادة من معلوماتهم وارشاده لبعض الاماكن . وتمت الاستعانة بلارسلات والاطاريح الخاصة بمنطقة البحث لمزيد الاستقصاء والكشف عن واقعها .

اختيار العينة كان قصديا لوجود التجانس بشكل ملحوظ بين ابناء المدينة . ووزعت ١٠٠ استمارة (تمت الاجابة على ٧٣ فقط بسبب ظروف رافقت التوزيع) . وتضمنت الاستمارات اسئلة عن اتجاهات الساكنين حول الخدمات والمكان الذي يسكنون فيه . واستخدم الاحصاء الوصفي لتفسير النتائج .

الفصل الاول

الرمز يصنع المكان

في المدن الاسلامية ومدن المراقد بشكل خاص ، تكتسب المدينة طابعها المؤثر من الرمز الديني الذي يحاط بالقداسة والتبجيل من قبل الناس / الاتباع . فالرمز المقدس هنا يعود بحفريات الذاكرة الى احداث بطولية رسخت قيمته على مر الاجيال . يرغب الناس في التقرب دائما من الرمز - البطل الذي يثوي في المكان محولا اياه الى موضع للسكن والعمل ومولداً بالتالي حركة فاعلة من الزيادة في السكان والمباني المحيطة به . وعادة ماتكون هذه المباني سكنية ام تجارية متخذة شكلاً حلقياً وان لم يكن بالضرورة دائرياً متكاملأ .

هكذا امكن لرمزية المرقدين الشريفين للحسين والعباس وعبر حفرة الذاكرة الشيعية ان تحول البقعة الصحراوية الجرداء التي اصطبغت بالدم ذات يوم من سنة ٦١ هـ الى مدينة عامرة بالسكن ومأهولة باصناف البشر أصلاً ء ودخلاء (مهاجرين وزوار) ، ومختلف الانشطة والاعمال وهي لا تتجاوز في حجمها بضعة هكتارات .

هناك ميزتان لكريلاء القديمة من الناحية المعمارية الحضرية : الاولى دينية / عالمية وتتمثل بوجود المرقدين . والثانية سكنية محلية عبارة عن النسيج التقليدي للمحلات السكنية الذي لايزال قائماً .

ولكون الضريحين يحملان رمزية سامية تتجدد كل يوم ، فهي تعد العنصر الفاعل من طرفي المعادلة مقارنة بالمجال السكني الذي يعد عنصراً منفعلاً الى جانب العنصر الثالث متمثلاً بالمجال التجاري الاكثر تحديثاً من النسيج السكني المتضام .

فاعلية المرقدين تعني بانهما لا يخصصان ساكني المدينة وحسب بل تمتد بشكل اقليمي وعالمي لتحتضن الملايين في الزيارات الموسمية كعاشوراء والاربعين وليلة النصف من شعبان . بينما يبقى المجال السكني محلياً صرفاً يخص اهل المدينة ، وينقسم المجال التجاري بينهم وبين مالكي ومستثمرين من داخل وخارج كربلاء .

فالرمزية الدينية - التاريخية للمرقدين وباقي المقامات الدينية كانت ولا زالت سبباً في حركة الانسان والمكان . الحركة الانسانية تتم بالتغيرات الديموغرافية ووفود الزائرين ، وحركة المكان بتغييره من نشاط لآخر كما سنرى .

وهذه الرمزية المقدسة هي التي جعلت من كربلاء مدينة طقوسية شعائرية اكثر منها مدينة فكرية / فقهية كما النجف . فالحوزات الكريائية (المدرسي ، الشيرازي ..) تعد ذات شأن ثانوي قياساً

بحوزات النجف . لذا لم يفت الرحالة والمستشرقين مثل هذا التمييز بين المدينتين ، تقول ليدي درور " اذا كانت النجف هي الرأس المفكر عند الشيعة فالقلب كربلاء " ^٢ .

الرمز - الشخصية - المكان

ان الفعل الاجتماعي الذي يهدف الى انتاج المعنى في الحياة اليومية هي طقوس الزيارة وليس الدراسة الفقهية . وهذا يرسخ مفهوم " المأساة " في الشخصية الكربلائية اكثر من النجفية التي تنظر الى الموت نظرة اعتيادية لكثرة الجنائز التي تمر يوميا امام الانظار . تجدد " المأساة " المرتبطة بواقعة الطف كل سنة (بل كل يوم عن طريق الخطب والمحاضرات الدينية السمعية والبصرية) والنزوع الاحتجاجي المرتبط بكرامية السلطة انعكس على علاقة الانسان بالفضاء الحضري من جهة ولا مبالاته وعدم تمتعه بهذا الفضاء من جهة اخرى . فتخطيط المدينة يتبع الاسلوب التخطيطي للمدينة العربية الاسلامية التي تمتزج فيها حاجة الانسان مع ثقافته . وجدت دراسة حديثة بان تصميم الاحياء السكنية في المدينة القديمة مرتبط بالمفاهيم الاسلامية مثل الاستخلاف (خلافة الانسان) وقاعدة لاضرر ولا ضرار وحسن الجوار ومبدأ الخصوصية وستر الحرمات، والحسبة (رقابة البلدية) ^٣ .

هكذا نرى ان الحاجة للمسكن لا تبيح للسكان ان يرتفع ببنائه كي لا يضاهي الرمز في علوه (المرقد) ولا تضاهي ارتفاع القباب الشامخة بهيبتها الى السماء . لا بد ان يبقى المرقد بقبابه ومآذنه اعلى ارتفاعا من بقية المنازل كنوع من الاجلال والتقدير وحتى يتوفر عنصر المفاجأة التي تمنح الزائر للمكان رهبة وروحانية . هذا الامر لم يشرع فقها لكنه ينطلق من الثقافة الطوقسية للانسان الكربلائي . فالرمز المقدس يعلو في سموه (معنويًا) وارتفاعه (ماديًا) حاجات الانسان . لكن لا ينطبق نفس الامر على بقية الابنية التجارية والخدماتية . فهي كما وجدنا من خلال الملاحظة المباشرة لبعض الفنادق الجديدة ترتفع بشكل يكاد يقترب من ارتفاع المآذن والقباب . وهذا الامر إما يعود الى ميول دنيوية للمستثمر المحلي او ان المستثمر اجنبي او غريب عن اهالي المدينة .

لم تقتصر ثقافة " المأساة " على تاريخ اهل البيت وانما تاريخ المدينة وساكنيها ايضا ، حيث تعرضت لنكبات كثيرة راح ضحيتها الالاف نتيجة الاسلوب القمعي الذي استعملته الانظمة السابقة والغزوات التي تعرضت لها من جهات ا صولية متشددة (كالوهابيين في القرن ١٨ والقاعدة بعد عام ٢٠٠٣) ، ولازالت احداث الانتفاضة الشعبانية وما مارسته حكومة البعث من اعمال ابادة جماعية وضرب المراقد والمساكن وتسويتها بالارض راسخة في الذاكرة الشعبية . انعكست هذه الثقافة على بناء المنازل التي تمتاز بقدماها وتهرئها ، وعلى نفسية الانسان وعدم شعوره بالمتعة . لا نجد مثلا اماكن للترويح والفضاءات المفتوحة الا خارج المدينة .

كما تمتاز الكثير من المحلات والفنادق بقدمها الامر الذي يعني انفعال الانسان بالتاريخ ، بينما نرى ميولا تجديدية في مساكن وابنية اخرى تشير الى الرغبة في التحديث والانفعال مع الروح العصرية . في اغلب المحلات السكنية خصوصا ذات البناء التقليدي كباب السلامة والخان نجد الفنادق القديمة والبيوت ذات الطراز المعماري التراثي ، بينما نجد في المخيم وبعض مناطق العباسيتين ابنية وفنادق مرتفعة لها طراز حديث بجوار منازل مشيدة بشكل يختلف عن المحلات القديمة وشوارع عريضة.

المحلات السكنية او ما يسمى " الدرايين " تتسم ببعد تاريخي مثل عكد معاوية وهو شارع ضيق حاليا يربط بين التل الزينبي والمخيم الحسيني وسبب تسميته مجهولة . وعقد الخره، وهو دربونة ضيقة شبه مهجورة في منطقة باب النجف مقابل الروضة العباسية ويشاع ان تسميتها بهذا الاسم يُعزى الى انها كانت ولا تزال (مبوله) يقضي في الناس حاجاتهم، وسبب ذلك بحسب الروايات انها مقبرة لقتلى الجيش الاموي الذي شارك في واقعة الطف لذا يأنف السكان من السكن فيها لان رائحتها كريهة جدا . وهناك عكد الساده وعكد الزعفران وعكد بلبيل وغيرها من الازقة الضيقة التي تنتشر في بعض مناطق المدينة القديمة.

في المحلات / الاطراف الكربلائية يختلط الدين وطوقسه مع ثقافة العشيرة ، فنجد تلك المحلات موزعة بين عشائر تقوم كل منها بواجبها الشعائري ، ويكون الموكب الطقوسي ايام الزيارات الكبرى معنونا باسم الطرف (موكب طرف باب الخان او باب السلامة ...). ومن اهم العشائر الموجودة في محلات كربلاء القديمة هي :

١. الوزون ٢. السلامة ٣ . الطهامزة وينقسمون إلى مجموعة أفخاذ البوجبران، البو يونس، البو شوارب، البو هر ، ٤ . النصاروة وينقسمون إلى فخذين هما البو عبد الأمير، والبو خليل، ٥ . المعامرة، ٦. المناكيش ٧. العبودة ٨. آل رحيم، وهم فخذ من عشيرة آل جميل، بني حسن .

يتأرس كل طرف شيخ أو أكثر وهو يمثل الوجه الاجتماعي لذلك الطرف، وفي بعض الأحيان يضم الطرف الواحد بين صفوفه مجموعة من الأفراد قد لا ينتمون إلى عشيرة واحدة، إلا أنهم جميعاً يخضعون ويتبعون شيخ ذلك الطرف الذين يعيشون معه على نفس المساحة من الأرض، وينعتون بأبناء المحلة أو الطرف الواحد.

الى حد عام ١٢١٧ هـ - ١٧٩٨ م كانت المدينة محاطة بسور يضم ثلاث محلات هي آل فائز، وآل زحيك، وآل عيسى . وبعد مجيء الوالي العثماني مدحت باشا هدم قسماً من السور من جهة طرف باب النجف واطاف طرفاً آخر الى البلدة سمي بمحلة العباسية، فأصبحت

لكربلاء سبعة اطراف هي باب النجف ، باب الخان ، باب العلوة او باب بغداد ، باب السلامة ، باب الطاق ، باب المخيم والعباسي بقسميها الشرقية والغربية ^٤ .

١- محلة طرف المخيم : تقع في الجنوب الغربي من المدينة وتخضع جميعها إلى رئاسة أبناء محسن كمونة وأشهرهم محمد علي وفخري، وسمي بهذا الاسم لقربه من مخيم الإمام الحسين.

٢- محلة أو طرف باب بغداد : وتقع في شمال المدينة وهذه المحلة تخضع لرئاسة أبناء عبد الرزاق وهم عبد الكريم وعبد الرحمن وعبد الجليل، وسميت بذلك الاسم لأنها تطلّ على شارع بغداد.

٣- محلة أو طرف باب الخان : تشكّل هذه المحلة الجزء الشرقي من المدينة وتخضع لرئاسة أبناء الحميري وهما عبد علي ومجيد، ويقاسم أبناء الحميري في مشيخة باب الخان ابراهيم أبو والده ، وسمي بهذا الاسم كونه يحوي ثلاث خانات كبيرة.

٤- محلة أو طرف العباسية: وتسمى الآن طرف العباسية الشرقية وطرف العباسية الغربية وتقع في الجزء الجنوب الغربي من مركز المدينة وأسندت رئاسة هذه المحلة إلى الشيخ طليح بن حسون، شيخ عشيرة النصاروة.

٥- محلة أو طرف باب السلامة: وتقع هذه المحلة في الجزء الغربي والشمال الغربي من المدينة ورئاسة المحلة لأبناء الشيخ علوان شيخ الوزون وهما عثمان وعمر، وسميت بذلك الاسم نسبة إلى عشيرة السلامة.

٦- محلة باب الطاق: يشكل هذا الطرف أو المحلة الجزء الغربي من مركز المدينة ورئاسة هذه المحلة للشيخ عمران جار الله شيخ عشيرة بني سعد، وسميت بذلك الاسم لوجود طاق الزعفراني الكبير.

٧- محلة باب النجف : إن هذه المحلة أو الطرف وتختلف عن الأطراف الأخرى كونها تشكل خليط واسع من أبناء بعض العشائر، لذلك أوكلت رئاستها لرجال الدين من علماء البلدة، وتحتل الأجزاء الجنوبية من المدينة، ويطلق عليه أيضاً باب طويريج أو باب المشهد .

هذه التقسيمات وجدت نتيجة لضعف نشاط الدولة في ممارسة واجباتها في الحفاظ على أمن المواطنين وحل مشاكلهم الاجتماعية لاسيما بعد تدهور السيطرة العثمانية وضعفها ، لذلك أصبح

لهؤلاء الوجهاء والشيوخ في هذه الأطراف حق التصرف فضّ وتسوية المنازعات بين الخصوم والتي كانت تقع بين أبناء الطرف الواحد أو بين طرف وآخر^٥.

وبالرغم من هذه التقسيمات الا ان دور العشيرة يكاد يكون منحسرا ولا يؤدي الى صراعات كما هو الحال في الريف. ويغلب على سكان المدينة الطابع المدني الذي يقلص من دور العشيرة ويرفع من النزوع الفردي. اذ ينقسم السكان في تبعيتهم الى اكثر من وجهة و تعزى توجهاتهم الى الطبيعة السايكلوجية للفرد، الا انهم في الازمات يتبعون غالبا وجهاء المدينة بشكل حصري بغض النظر عن توجهات الوجهاء الدينية والثقافية او السياسية، فالمواطن الكريلائي بشكل عام يتبع المصلحة الفردية دون الانقياد الى شخص بشكل كامل، فيما تلعب الاسر دورا كبيرا في التأثير على السلوك الاجتماعي والقرارات المهمة. وهذا النزوع التحرري الفردي جعل من الممكن انقسام النخب الثقافية في ك ربلاء على محورين وينسب متوازنة وجيدة، وهي خليط من اهل المدينة الاصليين والجماعات النازحة اليها، الا ان تأثيرها لا يزال محدود في الشارع الكريلائي، ومحاور النخب الثقافية هي النخب الدينية النخب الليبرالية العلمانية.

العنصر الثقافي الاخر والمهم في المنطقة السك نية هو نسيجها العضوي المتضام في كتل متراسة تتخللها الازقة والممرات التي تعد عنصرا بيئيا لتكييف الهواء وتقليل الغبار صيفا. لكن لو نظرنا الى عمران المنزل نظرة تاويلية لوجدنا بان هذا العمران يؤكد على ثقافة التحريم او حرمة الكشف المختصة بالنساء .

تنتج مثل هذه الثقافة " خصوصية " للمحلة السكنية و " استقلالية " للمنزل تبعث على الحذر والشك من الآخر خاصة الغرباء. يقول محمد عثمان بان " ظاهرة الخصوصية اثرت تاثيرا واضحا في الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية وبالتالي في تكويناتها المعمارية المختلفة. فقد حددت التعاليم الاسلامية نظام الحياة الاسرية بما يحفظ الحرمات والعرض، فاخذ طابعها بمرور الزمن سلوكا عاما حرص عليه السكان حرصا شديدا، واصدر الفقهاء احكامهم التي تدعم الخصوصية وطبقها القضاة ولم يتسامحوا في كشف حرمات المنازل بالنظر من ابوابها او اثناء المرور في الشارع او بجرحها من خلال الاطلاع على المنازل المجاورة من الاسطح والكوى التي تكشف بيوت الآخرين " ^٦.

هناك نزوع يبدو عاما في المدن الاسلامية التقليدية يركز على فصل الفضاء الخاص الداخلي (المنزل) عن الفضاء العام الخارجي. الاول سيبقى خاصا بالمرأة ويكون ساكنا، بينما الثاني خاص بالرجل ويكون حركيا فاعلا. من هنا نجد قلة عمل المرأة في المحلات التجارية وغيرها

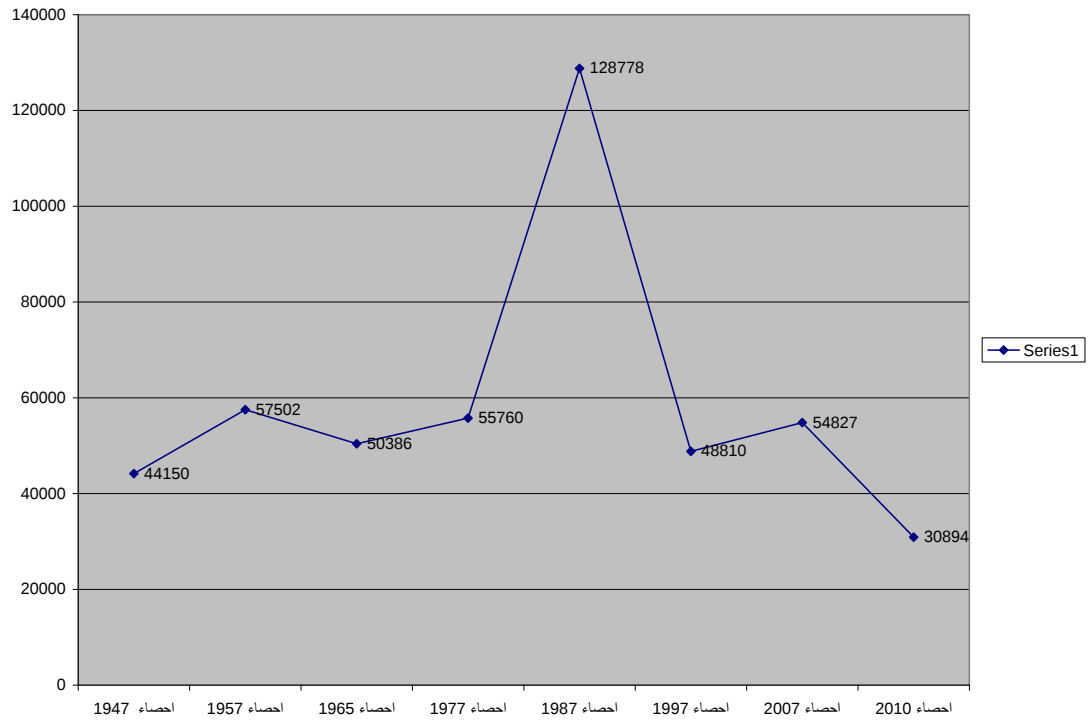
من الاماكن (سوى نطاق محدود من النساء الكبار في السن اللواتي يفترشن الارض لبيع حاجات بسيطة).

الفضاء الخاص اذن هو فضاء مؤنث ولذا يطلق بعض الباحثين على غرف النساء في المنازل التقليدية اسم " مسكن " ^٧ ، نظرا لسكون المرأة وقلة فاعليتها . بينما نجد الفضاء العام هو فضاء ذكوري لفاعلية وحركة الرجل . وبالرغم من كونه فضاء مؤنث نابع من حرمة الكشف وإبعاد النساء عن أنظار الرجال ، الا انه ذكوري من ناحية هيمنة الرجل وتدخله في تصميم المنزل ، كما كان للفضة حريم التي تصف النساء تأثير في دورهن ، فكانت دائرة نشاطهن مقتصرة على عزلة البيت ، وعندما يخرجن كن يسترن انفسهن بأثواب فضفاضة لاتلفت الانتباه ويغطين رؤوسهن ووجوهن ، وبذا يحافظن على عزلتهن " ^٨ .

اما الاجنحة او الغرف المخصصة للرجل فلا تعد " مسكناً " لان الرجل يستقبل الضيوف او يمارس اعمالا وصفقات او يحل بعض المشاكل بحضور الرجال الغرياء . لذا تكون هذه الغرف محرمة على النساء الا في اوقات الخلوة . فالمنزل منزله (بيت ابو فلان) لكن المسكن مسكنها . يتحول البناء الى رمز للعزل بين الخارج المش كوك في نواياه والداخل الذي يجب ان يبقى على طهرته . من هنا فان الشرف العربي لايتوقف على وجهة الرجل وعلو مرتبته بين قومه او شرف نسبه وانما شرفه يرتبط ايضا بعفة النساء داخل بيته . " ان يكون البيت ماوئى اميناً للرجل العربي ، هي فكرة تقوده اخيرا الى منطقة حرجة ، الا وهي التدخل بتصميمات المهندسين المعماريين الذين يصير عملهم تنفيذ رغباته واحلامه المشروطين بوعيه الثقافي والمعياري ...الى حد ان يفرض الملاكون تصوراتهم على المعماري من اجل انشاء منزل مقسم تقسيما جنسويا كاملا " ^٩ .

التغيرات الديموغرافية

الرمزية المتع الية لمرقدي الحسين والعباس تحصر التفكير بالمكان كونه ملاذا آمنا ومباركا يستحق السكن قريه . فكان من المعقول جدا ان تشهد المدينة تزايدا سكانيا عبر الاجيال يتخذ مسارا طبيعيا . لكن الذي حصل يكاد ان يشكل مفارقة ديموغرافية وهي ان كربلاء القديمة قد شهدت تغيرا ديموغرافيا بين صعود وهبوط تبعاً لعوامل يصب اغلبها في العامل السياسي . في احصاء عام ١٩٤٧ بلغ مجموع سكانها ٤٤١٥٠ وظلت في ارتفاع وهبوط حتى عام ١٩٨٧ الذي شهد اعلى عدد لسكانها عندما بلغ ١٢٨٧٧٨ لكنها عادت للتناقص مرة اخرى في تسعينيات القرن الماضي مع الانتفاضة وما تلاها من حصار اقتصادي وهجرة بعض السكان الى خارج المدينة او خارج العراق حتى وصلت عام ٢٠١٠ الى ٣٠٨٩٤ (شكل ١) .



شكل (١) يمثل سكان المدينة القديمة في كربلاء القديمة لعدد من التعدادات (تم استثناء تعداد ١٩٩٧ لعدم اكتمال بعض المحلات)

المصدر : عمل الباحث بالاستعانة بـ ١- سمير الميالي : الوظيفة السكنية لمدينة كربلاء ،رسالة ماجستير جغرافية، جامعة بغداد، ٢٠٠٥، ٨٩ ٢- وسن العبيدي : تحليل التباين المكاني لخدمات البنى التحتية لمدينة كربلاء، اطروحة دكتوراه في الجغرافية.جامعة بغداد، ٢٠٠٩، ٢٨٣ ٣-مديرية احصاء النجف

هذا الارتفاع الكبير ومن ثم التناقص الهائل يشير الى اسباب منها :

اولا: ترحيل السكان ذو التبعية الايرانية بصورة متسلسلة وعلى مدى عدة سنوات ابتدأت من عام ١٩٧٥ الى سنة ١٩٨٢ في ذروة الحرب العراقية الايرانية، وكانت اغلب اسبابها تنحصر في الشؤون السياسية تسبب قمعها بإفراغ المدينة ما يوازي ثلث سكانها الاصليين.
ثانيا: نزوح اهالي البصرة الى كربلاء. ففي عام ١٩٨٢ شهدت كربلاء امواج سكانية كبيرة قادمة من محافظة البصرة، بعد سقوط الاخيرة تح ت وابل القصف المدفعي الايراني اثناء الحرب، واغلبهم من المناطق الريفية في محافظة البصرة، وكان ت المنازل الفارغة من اهله الذين تم ترحيلهم الى ايران سببا في تيسير اقامتهم في كربلاء، الى جانب استغلال الكثير من العوائل البصرية للحسينيات في بداية الامر قبل الاستقرار بشكل نهائي .ولا تزال اعداد كبيرة من اهالي

البصرة تستوطن كربلاء الى يومنا هذا، بغض النظر عن الاعداد القليلة من النازحين الذين فضلوا العودة الى محافظتهم . وهذا قد يفسر ولو نسبيا ارتفاع عدد سكان المدينة في تعداد ١٩٨٧ .

ثالثا: نزوح اهالي الناصرية ومدن الجنوب الاخرى الى كربلاء، وحدث ذلك مجددا بشكل لافت وكبير مطلع عام ١٩٩٧ ، حيث نزحت عشائر بأكملها من اهالي الناصرية ومئات العوائل من محافظات العمارة والديوانية والبصرة والسماوة الى كربلاء بهدف الاسترزاق والعمل، خصوصا بعد تدهور الوضع المعيشي في مناطقهم بسبب الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضا على العراق من جهة، و انتعاش السياحة الدينية في ذلك الوقت، بعد الاتفاقية المبرمة بين العراق وايران في ذلك العام للسماح بدخول الزوار الايرانيين الى العراق.

رابعا: بعد سقوط النظام السياسي في العراق عام ٢٠٠٣ عادت مئات العوائل المسفرة الى ايران لمناطق سكناها في العراق، لا سيما محافظة كربلاء.

خامسا: حالات النزوح بسبب العنف الطائفي الذي شهده العراق خلال الاعوام القليلة الماضية، ولجوء المهجرين من عدة محافظات ابرزها العاصمة العراقية بغداد وديالى والموصل الى هذه المدينة .ويتركز اكبر عدد من المهجرين في باب الخان والعباسية الشرقية كما يتضح من الجدول :١

المنطقة	عدد العوائل	عدد الافراد
باب الطاق	٥١	٣١٧
باب النجف	٩	٤٤
باب الخان	١١٥	٦٢٣
باب بغداد	٧٩	٤٢٥
باب السلامة	٧٦	٣٨١
المخيم	٦٠	٣٥٣
القاضية	٦٠	٣٥٣
العباسية الشرقية	٩٧	٥٣٧
العباسية الغربية	٣٤	١٨٥
المجموع	٥٨١	٣٢١٨

جدول (١) اعداد المهجرين لكل محلة في كربلاء القديمة حتى عام ٢٠١٠

المصدر : وزارة الهجرة والمهجرين

بذا يشكل المهجرين نسبة ١٠.٤ % من السكان البالغ عددهم ٣٠٨٩٤ لعام ٢٠١٠ وهي نسبة كبيرة خصوصا اذا عرفنا ان عدد المساكن في المدينة القديمة يزيد على عدد الاسر الساكنة وهذا

ما يطرح تساؤلا عن سببية تراجع عدد الاسر مقابل زيادة منازل المدينة . فبعض الاسر قد حولت منازلها الى ورش او مخازن تجارية والبعض الآخر متروك سواء مهجور أو مستأجر من قبل الزائرين الذين يأتون بشكل دوري الى مدينة كربلاء او من قبل الاسر المهجرة.

الفصل الثاني

المجال والمجتمع

لا يتفاعل المجتمع مع المكان وحسب لكن يأخذ شكله المكاني المميز باتجاهين ، الاول : تدرج او تراتب الناس في المجال space ووضعهم في علاقة مع بعضهم البعض بدرجة اقل او اكثر من التجمع او الانعزال وانماط من الحركة والمواجهة التي تكون كثيفة او قليلة ضمن او بين مختلف الجماعات . الامر الثاني : ان المجتمع يجعل هرمية المجال نفسه بوسائل مثل الابنية والحدود والمسارات والعلامات والقطاعات ...لذا فان الوسط المادي للمجتمع يأخذ نمطا مميزا . وفي كلا الاتجاهين ينتقي المجتمع النسق المكاني الخاص به ^{١٠} .

في كربلاء القديمة يمكن تمييز ثلاثة مجالات اولها واهمها الديني الذي يكسب المدينة هويتها ويهيمن على باقي المجالات والانشطة ، والثاني من حيث الفاعلية والاهمية هو المجال التجاري ثم المجال السكني (شكل ٢) .

١ المجال الديني

يحتل مرقد الحسين والعباس مكان القلب في المدينة القديمة والشریان الرئيسي الذي يميز المحافظة ويغذيها بالنشاط والحركة . وهو يمثل ما نسبته ٥٣ % من المساحة الكلية للمدينة القديمة، لذا فهو المركز المهيمن على بقية الانشطة حسب السوسيولوجيا الحضرية . تشهد المدينة يوميا الاف الزوار يحتشدون قرب المرقد لاداء طقوسهم الدينية . وفي الزيارات الكبرى كعاشوراء والاربعين والنصف من شعبان تغص المدينة بالملايين من الزائرين ومن شتى انحاء العالم .

لقد بلغ عدد الوافدين الاجانب لسنة واحدة (من ربيع الاول ١٤٢٢ هـ الى ربيع الاول ١٤٢٣ هـ) ٤٦٤٠٢٣ اكثرهم من ايران ^{١١} . وحسب معلومات من مديرية السياحة في كربلاء فان عدد الزوار الداخلين يوميا في ما عدا مواسم الزيارات الكبرى يقدر بـ ٤٥٠٠ زائر من داخل وخارج العراق .

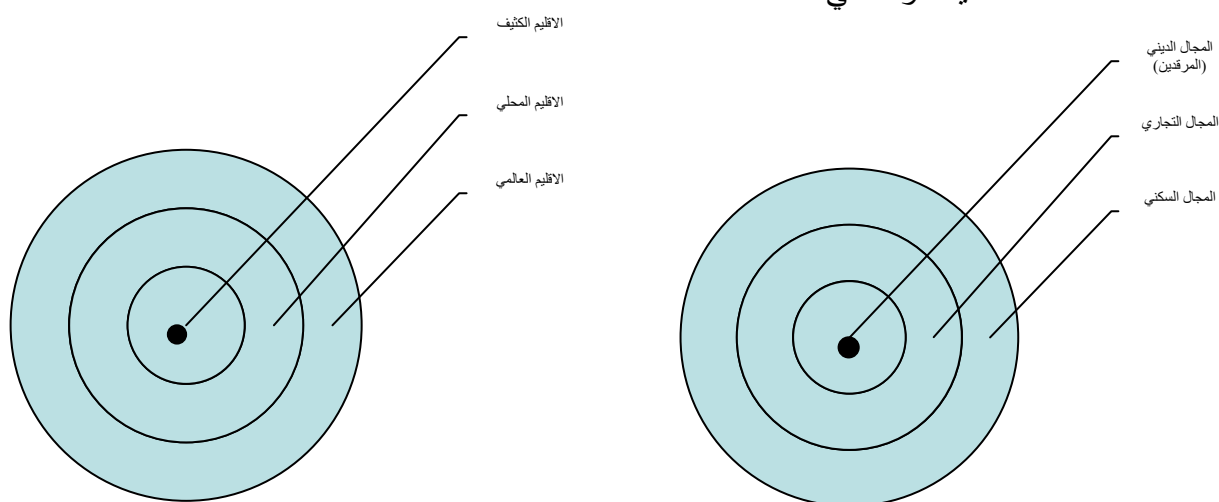
ولكون السياحة الدينية هي العنصر المميز الرئيسي في المدينة فهي ترتبط بثلاثة اقاليم تتباين حسب الكثافة البشرية :

١ - الاقليم الكثيف : ويتخذ علاقة عضوية مع المدينة القديمة بسبب قربها منها . وهو يضم المحلات السكنية والضواحي والقرى خارج منطقة الدراسة . يكون نشاط هذا الاقليم على مدار الساعة بسبب القرب المكاني . كما ان التفاعل مع المكان يكون قصيرا مؤقتا لنفس السبب . اذ لا يحتاج الزائر الى المكوث طويلا بعد الزيارة ويفضل العودة الى منطقة سكنه (شكل ٣) .

٢ -الاقليم المحلي : الذي يشمل المدن والقرى خارج محافظة كربلاء وخصوصا تلك الواقعة

وسط وجنوب العراق . كما توجد نسبة قليلة من بغداد ومحافظات كردستان والموصل وديالى . يكون نشاط هذا الاقليم اسبوعيا وشهريا وسنوياً . ومكوث الزائرين يطول قليلا عن مستوى مكوث زائري الاقليم الكثيف لكنه عموما مؤقت ايضا وليست هناك نية للمبيت سوى في الزيارات الكبرى حيث يببب القسم الاكبر منهم في خيم المواكب او في الشوارع بينما تقيم نسبة قليلة في الفنادق والمنازل المؤجرة او عند الاصدقاء والاقارب . ان عدد زوار هذا الاقليم يقل عن الاقليم الكثيف في الزيارات اليومية والاسبوعية لكنه يفوق كثيرا الاقليم الكثيف في الزيارات الموسمية .

٣ -الاقليم العالمي : ويشمل الوافدين من خارج العراق خصوصا من ايران ودول الخليج والهند وباكستان وامريكا وتنزانيا ..وتفاعل الزوار مع المكان اطول من زوار الاقليمين الآخرين بسبب بعد المسافة عن كربلاء ، ولذا قد يدوم بقاء الزائر اياما عديدة لاختذ الوقت في زيارة بقية المقامات والاماكن السياحية . ونسبتهم تقل كثيرا عن زوار الاقليم الكثيف والمحلي .



شكل (٢) المجالات الفاعلة في مدينة كربلاء القديمة

شكل (٣) الاقاليم المؤثرة في كربلاء القديمة

المصدر : الباحث

وبالرغم من ان السياحة في كربلاء ترنو نحو غايات روحية اكثر من الترويحية ، الا ان قلة الخدمات المقدمة للزوار تميل بهم الى ابداء مشاعر الاستياء بدلا من الرضا عن الرحلة . والحالة هذه تتأكد عند الزوار المحليين بصورة جلية فكيف بالزائر الاجنبي !. تشير دراسة معاصرة اجريت على عينة من الوافدين الاجانب الى اسباب عدم الاعجاب بالرحلة الى كربلاء من خلال الجدول ٢ :

عوامل عدم الاعجاب بالرحلة	%
قصر مدة الزيارة للعتبات المقدسة	٨١,٥
مدة الإقامة	٨٠
عدم ملائمة وقت الزيارة للعتبات المقدسة	٧٦,٥
عدم ملائمة وسائل النقل	٧٥
عدم توفر وسائل الاتصال	٧١,٣
تعقد الشؤون الادارية	٦٩,٤
رداءة الخدمات الفندقية	٦٦,٤
الكلفة العالية للكمارك	٦٣
رسوم فحص المناعة وتشيرة الدخول	٤٨,٥

جدول (٢) يمثل عوامل عدم الاعجاب بالرحلة (الزيارة) الى كربلاء

المصدر : (علي العيسى.م.س. ١٧٩)

كما ان احد الاسباب التي تضطر الزوار الى مغادرة الاضرحة في مدة قصير هو الازدحام الناتج من قلة المساحة المحيطة بالضريحين. ولان اقامتهم تطول اكثر من بقية الزوار المحليين فانهم يقيمون في كربلاء عدة ايام . ويفضل نسبة ٢٢.١ % منهم الفنادق و ١٨ % يفضلون الشقق بينما يفضل ٥٩.٩ % الإقامة ضمن عائلة بسبب رخص اجر الاخيرة وتوفر اجواء اللفة بين العوائل والزوار^{١٢}.

ونظرا لفاعلية المدينة الدينية فان هناك جوانب مهمة تعيق او تحقق السيطرة الفضائية للزائر على المكان .

يترجم مفهوم السيطرة الفضائية في تنوع المستويات الفضائية من حيث درجة السيطرة التي يمتلكها الإنسان فعلا، او التي يحس بأنه يمتلكها في أثناء تواجده في الفضاء ، وبناء على ذلك يبني قراراته ومواقفه كإحساسه بالانتماء الى الفضاء ، والمسؤولية عنه ، وإمكانية قيامه بسلوكيات خاصة ضمنه لا يستطيع القيام بها في أوساط أخرى^{١٣}.

واذا ما استثنينا العامل الديني – الاجتماعي الذي يحقق للزائرين وظيفة اجتماعية بزيادة التفاعل والتغذية الروحية فان ما يعيق تحقيق السيطرة على الفضاء هو قلة الخدمات او عدم استيعابها للكتل الهائلة من الزوار.

فما يتحقق للزائرين من خدمة سكنية لا يفي بحاجتهم للسيطرة على الفضاء الحضري بما يعود بالتالي على عوامل من التذمر والاستياء كما ذكرنا اعلاه . لتشخيص مشكلة سكن الزائرين (وعددهم اربعة ملايين حسب احدى الدراسات) ينبغي معرفة انواعهم وكما في الجدول ٣:

أنواع الزائرين	النسبة	العدد
(الداخلي) من المحافظة	٥ %	٢٠٠٠٠
(الخارجي) من المحافظات	٨٥ %	٣٤٠٠٠٠٠
(الخارجي) عرب و أجانب	١٠ %	٤٠٠٠٠٠
المجموع	١٠٠ %	٤٠٠٠٠٠٠

جدول (٣) يمثل تصنيف الزائرين

هناك اماكن كثيرة داخل المدينة القديمة يهدف الى زيارتها الزوار منها خارج منطقة الحرمين مثل مقام تل الزينية غرب الروضة الحسينية، المخيم الحسيني، مقام ابو الفهد الحلي على امتداد باب قبلة الامام الحسين جنوبا، مقام علي الاكبر وعبد الله الرضيع في منطقة باب السلامة ، مقام وقفة الامام الحسين مع عمر ابن سعد التاريخية في سوق باب السلامة ايضا ، مقام الامام المهدي على شارع المحيط ،مقام الامام الصادق خلف م قام الامام المهدي من جهة الشمال ،مقام كف العباس الايمن ن قرب الروضة العباسية جهة الشرق ،مقام كف العباس الايمن قرب الروضة العباسية جهة الشرق ،مقام شير فضة في منطقة باب النجف ،مقام علي ابن الحمزة في منطقة باب طويريج.

لكن يبقى المرقدين والمنطقة الفاصلة بينهما (بين الحرمين) يشكلان المركز المهيمن على بقية المواقع الدينية والسياحية فضلا عن تأثيره المباشر والروحي في وعلى المجالين التجاري والسكني اللذان سنبحثهما لاحقا .

وفي كربلاء تنتسج دائرة المجال الديني لتضم عددا من المدارس الدينية التابعة لعدد من الحوزات التي تعد اقل شهرة وتميزا من حوزات النجف . تتوزع هذه المدارس في المحلات السكنية كما يتضح من الجدول (٤).

ت	اسم المدرسة الدينية	سنة التأسيس	الموقع	عدد الطلبة	عدد المدرسين	المراحل الدراسية	الادارة والاشراف
١	مدرسة الامام الحسين	٢٠٠٣	مرقد الامام الحسين	٣٠٠	٤٠	٦	ممثلية السيد السيستاني
٢	دار العلم	٢٠٠٤	مرقد العباس	١٢٠	١٣	٢	==
٣	مدرسة الامام المهدي	٢٠٠٤	المخيم	٢٠٠	١٥	٢	ممثلية السيد الشهيد محمد الصدر
٤	مدرسة الامام الصادق	٢٠٠٣	باب طويريج	١٥٠	٢٧	٣	ممثلية السيد محمود الحسني
٥	مدرسة احمد بن فهد الحلي	١٩٥٠	المخيم	١٤٢٤	٢٠	٤	ممثلية السيد صادق الشيرازي
٦	مدرسة الامام الرضا	٢٠٠٣	العباسية الشرقية	١٠٠	١٢	٥	ممثلية السيد محمد تقي المدرسي
٧	مدرسة الامام القائم	٢٠٠٤	المعلمين	٢٥٠	٢٨	٤	==
٨	مدرسة الامام الجواد	٢٠٠٣	العباسية الشرقية	٥٣	١٠	٣	==
٩	جامعة الصدر	١٩٩٧	المخيم	٢٥٣	٥٣	٦	ممثلية الشيخ محمد اليعقوبي
المجموع				٢٨٥٠	٢١٨		

جدول (٤) توزيع المدارس الدينية في كربلاء القديمة لعام ٢٠٠٦

المصدر : رياض الجميلي : كفاءة التوزيع المكاني للخدمات المجتمعية (التعليمية والصحية والترفيهية) في مدينة كربلاء ، اطروحة دكتوراه في الجغرافية ، تربية ابن رشد ،جامعة بغداد، ٢٠٠٧ ، ١٦٤

واكبر مدرسة قائمة الى الان هي حوزة ابن الفهد الحلي التي شيدت الى جوار المزار، وبنائها متعددة الطوابق. ويقدر عدد الطلبة في هذه المدارس بحوالي (٢٨٥٠) .

ومما يزيد من تميز المدينة بطابعها الديني كثرة الحسينيات والمساجد داخل المحلات وفي الازقة والشوارع^{١٤}.

كما اثرت المميزات الدينية هذه على الجانب الفكري - العقائدي ، فهناك عدد من المكتبات التي تمتلئ بالمؤلفات الدينية المتعلقة بحياة اهل البيت والتي تستهوي القراء بشكل كبير .بالاضافة الى المؤلفات والرسائل الفقهية بالمرتبة الثانية وعدد اخر من الكتب الثقافية التي تتحدث بلغة العلوم الانسانية المعاصرة^{١٥}.

٢ المجال التجاري

يأتي المجال التجاري من حيث الموقع والاهمية بعد المجال الديني ويحتضن الاخير بشكل حلقي فضلا عن امتداده بشكل شريطي مع الشوارع الرئيسية والفرعية. ونتيجة للنشاط السياحي الكثيف في المنطقة فقد تحولت الكثير من الشوارع السكنية الى النشاط التجاري او الخدماتي (كالفنادق) او الصناعي ك بعض الورش والمعامل الاهلية .

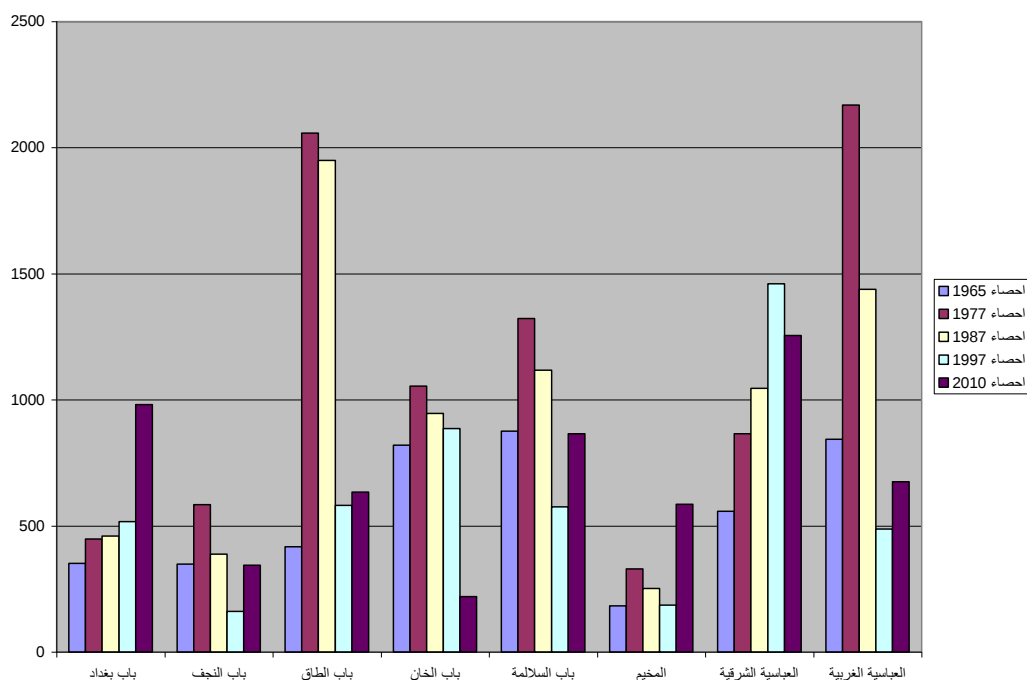
اضافة الى الاسواق التي تبيع مختلف البضائع^{١٦} ، يضم المجال التجاري نشاطا جيدا للبيع المتجولين بلغ عددهم ١٧٥٠ - ٢٠٠٠ بائع باعمار ١٥ - ٤٥ سنة من مختلف مناطق كربلاء ومحافظات عراقية اخرى.

من الاهمية بمكان الاشارة الى ان تزايد العمل بالوظيفة التجارية دفع العديد من الصناع المهرة والصائغين وحرفيي الاعمال التراثية الى تغيير نشاطهم . فعزف معظم صناع الذهب والتراث عن العمل واتجهوا الى التجارة ، ولم يبق سوى معارض قليلة للتراث الشعبي . فبعدما كان يقدر عددها ب ٥٦ محلا . وكذا الحال في محلات الذهب ، اذ بلغت في عام ٢٠٠٤ ما يقرب من ٣٠ % من عددها السابق . ونظرا لتزايد الوظيفة التجارية فقد ازدادت اسعار المحلات بشكل ملفت .بلغ سعر المحل بمساحة ٢,٥ * ٢ م في شارع العباس ١٥٠٠٠ \$ اي ما يعادل ٣٠ مليون دينار عراقي وبايجار مقداره ١٥ مليون دينار سنويا^{١٧}.

٣ - المجال السكني

كما هو الحال مع التغير الديموغرافي الذي سبق وان اشرنا اليه ، فان المجال السكني شهد هو الآخر تغيرا لم يتخذ مسارا خطيا او مستقرا ، بل ان الملاحظة الدقيقة تشير الى انه يتغير صعودا وهبوطا ليس على مستوى المدينة وحسب بل على مستوى المحلات السكنية التي تكونها. فلو اخذنا العباسية الشرقية كمثال نلاحظ بان عدد مساكن هذه المحلة كان ٥٥٨ في عام

١٩٦٥ ثم استمرت بالزيادة المضطردة حتى وصل عدد المساكن ١٤٦٠ عام ١٩٩٧ لكننا نرى تناقصا كبيرا في عام ٢٠١٠ بحوالي ٢٠٠ منزل .ام العباسية الغربية فقد ازداد عدد مساكنها من ٨٤٣ عام ١٩٦٥ الى ٢١٦٩ عام ١٩٧٧ لكنه هبط في السنوات التالية واستمر بالهبوط حتى ارتفع عام ٢٠١٠ الى ٦٧٥ منزل. وهكذا الامر بالنسبة لبقية المحلات (شكل ٤) .



شكل ٤ يمثل عدد المساكن لعدد من التعدادات السكانية وحسب المحلات في كربلاء القديمة المصدر: الباحث بالاستعانة بـ ١- سمير الميالي: الوظيفة السكنية لمدينة كربلاء، رسالة ماجستير جغرافية جامعة بغداد، ٢٠٠٥، ٨٩ - ٢- وسن العبيدي : تحليل التباين المكاني لخدمات البنى التحتية لمدينة كربلاء، اطروحة دكتوراه في الجغرافية جامعة بغداد، ٢٠٠٩، ٢٨٣، ٣- مديرية احصاء النجف

تاريخيا اخذ المجال السكني مراحل عدة حتى وصل الى ما هو عليه الان . تمثلت المرحلة الاولى (القديمة) قبل عام ١٩٣٥ ونشأت فيها احياء المدينة القديمة وباب الخان . والمرحلة الثانية (الموروثة) بين ١٩٣٦ - ١٩٥٧ وظهرت فيها احياء الجزء الاول من العباسية الشرقية والغربية والمخيم . والمرحلة الثالثة (الحديثة) بين ١٩٥٨ - ١٩٧٠ ونشأت خلالها احياء الجزء الثاني من العباسيتين - واحياء اخرى غير منطقة الدراسة - وعلى مستوى المحافظة تمثل احياء المدينة القديمة نسبة ٢,٥١٣ %، وباب الخان ٢,٨٣٤ % العباسية الشرقية ٢,١٣٠ % والغربية ٠,٧٦١ % ، والمخيم ٠,٧٦١ %^{١٨} .

ومن الناحية الطباقية اصبحت معظم المحلات تتساوى بالمستوى الاجتماعي خصوصا بعد ان اصبحت مركز لمدينة كربلاء مؤخرا مما اضى على جميع مناطقها ريع مادي واقتصادي متساو، الا ان بعض المناطق تتميز ببعض المنازل الكبيرة والثرية منذ القدم، مثل محلة باب

بغداد، ومنطقة العباسية الغربية، ومنطقة المخيم الحسيني التي تتميز عن بقية المحلات بجوانبها العمرانية والبنى التحتية ، على العكس من منطقة العباسية الشرقية، وباب طويريج، وباب الطاق وباب السلامة، التي تنتشر فيها المنازل الصغيرة والمتواضعة، فيما باتت بعض المحلات اماكن تجارية خالصة، تنتشر فيها الفنادق بشكل مركز والاسواق التجارية والمطاعم خصوصا الشريط الذي يحيط بمنطقة بين الحرمين والشوارع الرئيسية المؤدية اليها، وكذلك محلة باب النجف على وجه الخصوص.

من عينة بلغت ١٠٠ اسرة لكل محلة في المدينة القديمة لاحدى الدراسات (دراسة المركز العالمي للابحاث على الموقع karbalaplan.com) نجد ان المخيم تضم اكثر المنازل التي تضم طابقين وذات الحالة العمرانية الجيدة التي تستعمل الخرسانة في البناء . كما ان ما يقرب من نصف العينة كانت مساكن حديثة التشييد ولم ي مضي اكثر من ١٠ سنوات على بنائها وفيها ايضا اكثر المنازل بمساحة ٢٠٠ و ٣٠٠ و ٤٠٠ وامتلاك الحديقة والكراج والهاتف . وتمتاز الاسرة بقلّة حجمها (غالبا الاسرة النوواة) فيتراوح عدد افرادها بين ١ - ٧ . وفيها اكثر الاسر التي يقل عدد افرادها فعدد الاسر التي تضم فردا وا حدا يبلغ ٧٧ والتي تضم فردين ٢٠ والتي تضم خمسة افراد ٣ .

وتاتي بعد المخيم محلة باب الخان ثم تتحدر الجودة العمرانية والتخطيطية مع باب بغداد والعباسيتين نزولا الى محلات باب السلامة وباب الطاق . حيث نجد اكثر المنازل بالعمران التقليدي القديم الذي يفنّد الى الحديقة والكراج والهاتف وبمساحة ١٠٠ م او اكثر بقليل . وبالرغم من قلّة حجم الاسرة في هذه المحلات بسبب المساحة الصغيرة للبيت الذي يدفع بالم تروجين الجدد للبحث عن منازل اخرى بالتملك او الايجار ، الان ان هناك اسر كثيرة ذات حجم يتراوح بين ٨ - ١٤ فرد واخرى اكبر من هذا الحجم في هذه المحلات تحديدا . في محلة باب بغداد وحدها توجد ٢٣ اسرة من العينة يبلغ حجمها بين ١٥ - ٢٤ وفي العباسية الغربية ١٢ اسرة . ما يعني زيادة المشاكل الاسرية التي تصل الى حد العنف متأثرة بحالة الاكتظاظ والزحام التي تقلص من حجم ا لفاعلية الشخصية في المكان او الحيزية territoriality . كما ان مثل هذا الحجم الاسري دفع بالتالي الى ان اغلب الم نازل مشيدة بطابقين لاحتواء الزيجات الجديدة او (في حالة قلّة حجم الاسرة) استغلاله لفائدة الزائرين الاجانب . وهذا يؤدي الى زحام شديد حول الخدمات التي تكاد تكون معدومة في المدينة .

وتمتاز المحلات هنا بزيادة الكثافة السكانية بشكل اكبر من المخيم وباب الخان الامر الذي فرض نوعا من الخدمات والبنى التحتية السيئة في هذه المناطق . فالسكان اشتكوا م ن وجود مساوئ كثيرة منها الماء الملوث وتكسر انابيب المياه والفترة ا لطويلة المستغرقة بين حصول الكسر وتصليحه، والامر نفسه يحصل في خدمات الكهرباء والهاتف الامر الذي يقلل من توثيق

الصلة مع المكان والانتماء اليه تكشف عنه دراستنا الميدانية التي اظهرت نسبة ١٧.٨ % يرغبون بعدم البقاء وتفضيل الرحيل عن المدينة بسبب سوء بناها التحتية (انظر الدراسة الميدانية لاحقاً).

من جهة اخرى يفرض وجود بعض الاسر المهجرة (بلغت في العينة المذكورة سابقا ٦ في باب الطاق و ٨ في باب الخان وانظر عدد الاسر المهجرة في جدول ١) تنافسا جديدا على مثل هذه الخدمات ويتطلب وقفة طويلة من قبل الجهات التخطيطية لتوفيرها بشكل مطمئن. فالمدينة تمتاز بكثافة سكانية عالية ،اذ تبلغ مساحتها ٥٤٨٢٧ هكتار وتصل كثافتها السكانية ١١٤ نسمة / هكتار لعام ٢٠٠٧.

من ناحية هرمية تقع احياء العباسية الغربية والمدينة القديمة ، ضمن اقليم الكثافة المنخفضة حيث تبلغ الكثافة بين ٦٣ - ١١٨ نسمة / هكتار .وتقع العباسية الشرقية ضمن اقليم الكثافة المتوسطة ١٣١ نسمة / هكتار . وباب الخان ضمن اقليم الكثافة العالية جدا حيث بلغ الحد الاعلى للاقليم بكثافة بلغت ٥٥٧ نسمة / هكتار نتيجة لسكن اكثر من اسرة في مساكن صغيرة المساحة^{١٩}.

ان الخدمات الموجودة حاليا في المدينة لاتكاد تستوعب وتشبع حاجة السكان منها . كما ان توزيعها لم يأخذ بنظر الاعتبار العدالة الاجتماعية بين المحلات السكنية.

الفصل الثالث

الدراسة الميدانية

للقوف على الواقع الاجتماعي والخدماتي واتجاهات الساكنين ونظرتهم تجاه المدينة ومشاكلها ، فقد تم بحث ذلك ميدانيا من خلال اوراق الاستبيان ^{٢٠}. ووجد بان غالبية سكان العينة ونسبتهم ٨٧,٦ % يشعرون بالانتماء الى محلاتهم القديمة وهي نسبة معبرة عن الالتصاق بالمكان بسبب تاريخية المنطقة وقربها من المزار المقدس (جدول ٥). على الرغم من ان النسبة المتبقية اظهرت شعورا م نافيا بسبب ضيق المنزل وعدم توفر البنى التحتية في المحلة . وهذا ماسنجده في فقرات اخرى من الدراسة مثل الشعور بالاستقرار من عدمه .

فشعور الانتماء والشعور بالاستقرار الذي وصلت نسبته ٤١ % لم يمنع نسبة اخرى من السكان من ابداء مشاعر الضجر بنسبة ٣٩.٧ % والرغبة بالرحيل اذا ما تحسنت الظروف الاقتصادية بنسبة ١٧.٨ % .

بالرغم من ان تاريخ المدينة وشهرتها وقديستها يحفز الساكن على ابداء شعور الانتماء والحب ، لكن ما يضغط على مشاعرهم السلبية هو ضيق الازقة وعدم توفر الخدمات . فالازقة الضيقة المعروفة في مثل هذه المدن تمنح الساكني ن شعورين متضادين ، اولهما التقارب وروح الاجتماع والالفة والتضامن بين الافراد، لكنها من جهة اخرى تدفع بهم الى الضجر والملل والارتياح من الغريب وانتهاء ببعض مظاهر العنف .

وقد اظهرت الدراسة نسبة ٦٧.١ % من العينة تضايقهم من وجود الازقة بهذا الشكل . فهي لاتمنح الفرصة للتعبير عن الفردية وتنقص من حركة الانسان خصوصا المرأة وبالتالي فان المتنفس من ذلك هو قضاء أوقات الفراغ خارج المحلة (في الزيارة ٤٥.٢ % ، المقهى ٢٤.٦ % ، السوق ١٣,٦ % ...) او تفضيل قضاء الوقت في البيت (٥٠.٦ %) وهو ما يسبب ظهور بعض المشاكل الاسرية التي و صفت بانها (قليلة بنسبة ٣٦.٩ % ووسط بنسبة ١٧,٨ % وكثيرة بنسبة ٥.٤ %) .

تتوزع اسباب المشاكل الاسرية بين مشاكل مالية وضيق المنزل وازدحامه بالساكنين ومساائل شخصية ^{٢١}. فالاحتفاظ داخل المنزل يترافق مع تدني المستوى المعيشي لبعض الاسر وسوء الخدمات المقدمة لهم ، وكل ذلك يدفع باتجاه العنف المنزلي من جهة والعنف المحلي (بين ابناء المحلة) من جهة اخرى. اذ اشرت نسبة ٣٤,٢ % من العينة وجود مشاكل قليلة بين ابناء المحلة . ونسبة ١٩.١ % مشاكل وسط ونسبة ١٢.٣ % مشاكل كثيرة. وأياً كانت النسبة فانها تعني بان علاقات المواجهة اليومية face to face ليست تألفية على الدوام ، بل انها قد تولد الشحنة

والكراهية بسبب التواجه اليومي الروتيني . يساعد ذلك تلاصق المساكن وتجاورها الشديد والازقة الضيقة ، وسبب اخر هو انعدام وجود الفضاءات المفتوحة والخضراء . فالفضوات لم تعد تلبي حاجة السكان على الرغم ان نسبة ٧١.٢ % ايدوا ضرورتها . الا ان عدم وجود الحدائق والفضاءات المفتوحة يعد مؤشرا على مأزق العنف .

كما ان هذا السبب هو الذي يدفع الاطفال الى اللعب في الشارع (بنسبة ٤٢.٤ % والفضوات ١٦.٤ % والبيت ٣٢.٨ %) مع وجود نسبة قليلة تلعب في الحدائق ٩.٥ % والمركز الشبابي ١٣.٦ % تشمل محلات باب النجف والعباسية الشرقية على الاغلب . ومثل هذه الاثار تترتب عليها مشاعر الضجر والرغبة بالرحيل . ولاننسى ان نسبة ١٢.٣ % عبرت عن عدم الانتماء للمدينة . لكن هذه المشاعر السلبية لم تؤثر في وجود نسبة عالية من العينة عبرت عن انتمائها وحبها للمحلات السكنية . وهذه المفارقة تؤكد ان الانسان مرتبط بمدينة ومساكنه لكنه يشعر بالاغتراب بسبب الاحباط المتواصل في عدم تحقق ما يصبو اليه من الراحة والامن .

فقد عبر اكثر سكان العينة عن استيائهم من اعمال البلدية .نسبة قليلة جدا تؤمن بان اعمال البلدية جيدة ٤.١ % ونسبة اكبر بينت بان اعمالها مقبولة ٣٨.٣ % . لكن النسبة الاكبر تتوزع بين القول بان اعمال البلدية سيئة ٣٥.٣ % او مهمة ٢١.٩ % .

ان اكثر الاجابات بوجود مشاكل منزلية كانت في باب بغداد وباب النجف وبنسبة اقل العباسية الغربية . بينما كانت اكثر الاجابات بوجو د مشاكل بين ابناء المحلة في باب النجف فباب السلامة ثم باب بغداد . وتدور اسباب هذه المشاكل غالبا على مسائل مالية او شخصية داخل المنزل لكنها تنطلق من الاكتظاظ الذي لا يسمح بالحرية الكافية والاستقلالية في المجال الحيزي للفرد. اما المشاكل المحلية فسببها التنافس على الخدمات والازقة الضيقة .

مقترحات الساكنين بذاتها تعد مؤشرا لحالة من القصور في عمل الوحدات البلدية طيلة الفترة الماضية الامر الذي يدفع الى التفكير بفاعلية والاستجابة لرغباتهم لاشاعة الارتياح ومشاعر الرضا . فبسبب زيادة المشاكل التخطيطية وقلة الخدمات كانت اقتراحات الناس تتركز حول بناء المدارس ٧٢.٦ % وتعبيد الطرق ٦٨.٤ % وفتح المجاري ٦٧.١ % وماء الاسالة ٦٣ % وتوسيع الازقة ٥٧.٥ % والوحدات الصحية ورياض الاطفال ٥٠.٦ % ثم بقية الانشطة والخدمات .

الموضوع	الفقرة	النسبة %	الموضوع	الفقرة	النسبة %
الشعور بالانتماء	الانتماء للمحلة السكنية	٨٧,٦	مشاكل بالمحلة السكنية	كثيرة	١٢,٣
	الانتماء للمحلة السكنية	١٢,٣		وسط	١٩,١

٣٤,٢	قليلة		٤,١	ضيق البيت	اسباب اللاتمام
٣٤,٢	لاتوجد		٥,٤	قلة الخدمات	
١٩,١	كثرة الساكنين	اسباب المشاكل	١,٣	تغير في طباع البشر	
٢٦	ضيق الارقة	بالمحلة السكنية	٥٠,٦	البيت	اوقات الفراغ
١٢,٣	التنافس على الخدمات		٤٥,٢	الزيارة	
١٢,٣	مسائل شخصية		٢٤,٦	المقهى	
٤,١	جيدة	اعمال البلدية	١٣,٦	السوق	
٣٨,٣	مقبولة		٥,٤	الشارع	
٣٥,٦	سيئة		١,٣	مكان آخر	
٢١,٩	مهملة		٦٧,١	التضايق من الزقاق	الشعور نحو الارقة
٧٢,٦	مدارس	مقترحات تطوير	١٩,٥	الارتياح من الزقاق	
٥٦,١	رياض اطفال	المحلة السكنية	٤١	استقرار	الشعور نحو المحلة
٥٠,٦	حديقة		٣٩,٧	ضجر	
٤٢,٤	ملعب		١٧,٨	رغبة بالرجل	
٥٠,٦	وحدة صحية		٧١,٢	ضرورة الفضة	وجود الفضة
٤٢,٤	مقهى		٢٣,٢	لاضرورة للفضة	
٣٩,٧	نت		٤٢,٤	الشارع	لعب الاطفال
٤٣,٨	مركز ترفيهي		١٦,٤	الفضة	
٤٦,٥	مطعم		٣٢,٨	البيت	
٦٨,٤	طرق		٩,٥	حديقة المحلة	
٦٧,١	مجاري		١٣,٦	مركز	
٦٣	ماء		٥,٤	كثيرة	مشاكل اسرية
٥٧,٥	توسيع ازقة		١٧,٨	وسط	
٤٣,٨	كراج		٣٦,٩	قليلة	
			٣٨,٣	لاتوجد	
			٢٠,٥	كثرة الساكنين	سبب المشاكل الاسرية
			٢٤,٦	ضيق الارقة	
			٢,٧	قلة الخدمات	
			١٧,٨	مسائل شخصية	

جدول ٥ يمثل اتجاهات الساكنين حول المحلة والخدمات في كربلاء القديمة

المصدر : الدراسة الميدانية

الهوامش والمصادر

- ^١ المجال او الفضاء space مفهوم هندسي يتم من خلاله تنظيم المكان وخلق العلاقة المكانية بين الوظيفة والمعنى الاجتماعي للبناء المشيد ما يعني تنظيم العلاقات بين البشر ، انظر : Hillier.B & Hanson.J :the social logic of space,Cambridge university press,1984 , p2
- وللباحث دراسة بهذا الشأن حول مدينة النجف القديمة نشرت في مجلة دراسات اجتماعية- بيت الحكمة العدد ^٢ ليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات ، دار الوراق ، ٢٠٠٨ ، ص ٨٧
- ^٣ وسن الددة : دور المفاهيم الاسلامية في المنهجية التخطيطية لمدينة كربلاء المقدسة ، رسالة ماجستير تخطيط حضري ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٩ ، ص ١٧٩ - ١٩٠
- ^٤ راجع سلمان ال طعمة : دليل كربلاء المقدسة، ص ١٥
- ^٥ www.karbalanews.com
- ^٦ محمد عثمان : المدينة الاسلامية، سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٨ ، ص ٣٣٢
- ^٧ انظر :جنيفر سكيرس :الثقافة الحضرية في مدن الشرق الاوسط ، سلسلة عالم المعرفة ٢٠٠٤ ، ص ٩٣
- ^٨ نفس المصدر والصفحة
- ^٩ شاكرا لعيبي: العمارة الذكورية ، دار رياض الرئيس ٢٠٠٩ ، ص ١٢٤ - ١٢٦
- ^{١٠} Hillier and Hanson : opcit, 26- 27
- ^{١١} علي العيسى: السياحة الدينية في محافظة كربلاء، رسالة ماجستير ،قسم الجغرافية ،كلية الاداب -جامعة بغداد، ٢٠٠٤ ، ص ١٥١
- ^{١٢} ن ، م : ص ١٧٥ ، ١٨٣
- ^{١٣} هالة الخفاجي: اثر السياحة الدينية على التحديث العمراني لمركز مدينة كربلاء، رسالة ماجستير في التخطيط الحضري ، جامعة بغداد، ٢٠٠٦ ، ص ١٢٣
- ^{١٤} من اشهرها مسجد رأس الحسين - مسجد عمران ابن شاهين - مسجد السردار حسن خان - مسجد الناصري - مسجد الميرزا شفيق خان - مسجد الآغا باقر البهبهاني - مسجد صاحب الحقائق - مسجد الشيخ خلف - مسجد الشهرستاني - جامع العطارين - مسجد الأردبيلية - مسجد الحميدية - مسجد العباسية - مسجد الطهراني - مسجد الترك - مسجد الحاج نصر الله - مسجد ماهي كليب - مسجد السيد هاشم فتح الله - مسجد الصافي - مسجد الشهيد الثاني - مسجد الكرامة مسجد المخيم مسجد الإمام الحسن - الحسينية الحيدرية - فيضي حسيني - الحسينية الإصفهانية - حسينية السيد محمد صالح - حسينية الحاج منن - حسينية المازندراني - حسينية الأسكوئي الحائري - حسينية اولاد عامر .
- ^{١٤} من مكتباتها : خزانة مشهد الامام الحسين ،خزانة السيد نصر الله الحائري، خزانة الشيخ عبد الحسين الطهراني، خزانة السيد عبد الحسين الكلدار ال طعمة، خزانة السيد حسين القزويني، خزانة السيد محمد باقر الحجة الطباطبائي، خزانة الشيخ احمد بن زين العابدين الحائري، خزانة الشيخ محسن ابو الحب، خزانة الشيخ محمد بن داود الخطيب، خزانة السيد مهدي الحكيم الشهرستاني ،خزانة السيد محسن الجلاي الكشميري . ومن مكتباتها العامة :مكتبة الجعفرية، مكتبة سيد الشهداء، المكتبة المركزية العامة، مكتبة ابي الفضل العباس،

مكتبة الروضة الحسينية، مكتبة السيد علي اكبر الحائري، مكتبة المولى عبد الحميد الفراهاني، مكتبة الرسول الاعظم ، مكتبة النهضة الاسلامية، مكتبة السيدة زينب الكبرى ، مكتبة القرآن الكريم.

^{١٥} من مكتباتها : خزانة مشهد الامام الحسين ،خزانة السيد نصر الله الحائري، خزانة الشيخ عبد الحسين الطهراني، خزانة السيد عبد الحسين الكلدار ال طعمة، خزانة السيد حسين القزويني، خزانة السيد محمد باقر الحجة الطباطبائي، خزانة الشيخ احمد بن زين العابدين الحائري، خزانة الشيخ محسن ابو الحب، خزانة الشيخ محمد بن داود الخطيب، خزانة السيد مهدي الحكيم الشهرستاني ،خزانة السيد محسن الجاللي الكشميري . ومن مكتباتها العامة :مكتبة الجعفرية، مكتبة سيد الشهداء، المكتبة المركزية العامة، مكتبة ابي الفضل العباس، مكتبة الروضة الحسينية، مكتبة السيد علي اكبر الحائري، مكتبة المولى عبد الحميد الفراهاني، مكتبة الرسول الاعظم ، مكتبة النهضة الاسلامية، مكتبة السيدة زينب الكبرى ، مكتبة القرآن الكريم.

^{١٦} اهم الاسواق هي : سوق الدهان، الصفارين الحديث، الصفارين القديم، الميدان، الخفافين، التجار (العرب)، الحسين (سوق باب السلالة)، الزينية، باب الخان ، العلاوي

^{١٧} علي العيسى : م. س ٢٤٣

^{١٨} وسن العبيدي: وسن العبيدي : تحليل التباين المكاني لخدمات البنى التحتية لمدينة كربلاء ، اطروحة دكتوراه، قسم الجغرافية.جامعة بغداد، ٢٠٠٩، ص ٥٩

^{١٩} ن.م: ٦٦، ٧٠

^{٢٠} كان من المؤمل توزيع (١٢٠) استمارة في المسح الميداني ، الا انه ولظروف صعبة تم توزيع ٧٣ استمارة فقط . وتم اعتماد هذا الرقم لاستخراج النسب .

^{٢١} ننبه الى ان الاجابة الحقيقة اكبر من هذه النسب لكن وصلتنا اوراق استبيان لم تؤثر عليها الاجابة لوجود مشاكل لذا اهملت من التحليل .

Sociology of space

Study in ancient Kabala
(sociology, urban space, Karbala)

By
Dr. Shakir Saeed Yaseen

Anthropology department ,college of Arts
Almustanseria university

shalbidany@yahoo.com